

الإيمان يزيد وينقص

الدليل الثالث: قوله تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } (الحجرات:15) فجعل من الإيمان الجهاد وترك الريب والعمل، فلا شك أن هذا كله دليل على أن الإيمان شيء زائد على التصديق. إذن فيكون الإيمان مثلما عرفه الموفق رحمه الله ؛ وهو قول أهل السنة، وقد ذكروا أن البخاري رحمه الله يقول: رويت في هذا الكتاب عن نحو ثلاثمائة من العلماء كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل، ويريد بذلك أن مشايخه الذين أخذ عنهم كلهم على هذا القول: (الإيمان قول وعمل). وقد بدأ صحيحه -بعد المقدمة التي هي في الوحي- بكتاب الإيمان، ثم قال: (وهو قول وفعل، يزيد وينقص) ولم يذكر الاعتقاد؛ لأنه لا خلاف في الاعتقاد، ولما لم يكن الاعتقاد فيه خلاف أغفله، وذكر ما فيه الخلاف ؛ وهو القول والفعل ، أي: أن الإيمان تدخل فيه الأقوال والأفعال، ثم يترتب على ذلك كمال الإيمان ونقصانه وزيادته. وكثير من الحنفية والأشاعرة ونحوهم يعتقدون أن الإيمان واحد وأنه لا يتفاوت، وأن الناس فيه مستوون ، وأن إيمان جبريل وميكائيل ومحمد وموسى وعيسى وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام مثل إيمان سائر الناس ، وهذا بلا شك فيه خطأ ، وذلك لأنهم متفاوتون في العقيدة وقوة اليقين، ومتفاوتون في أثر تلك العقيدة على العباد، وإذا كانوا متفاوتين دل على أن الإيمان يتفاوت. فنحن نعرف أنه قد يكون هناك إنسان رزقه الله علما وقرآنة وتدبرا، أقبل على السنة، وعلى الحديث، وعلى القرآن، وأخذ يتأمل وقامت عنده الأدلة، ورسخت في قلبه أدلة الوجدانية وأدلة الربوبية، وأدلة البعث والنشور، وأدلة الأعمال والأحكام، وأدلة الرسل والإيمان بهم، والملائكة ونحوهم؛ رسخت في قلبه، وكان من آثار رسوخها أن انبعثت جوارحه بالعمل فلا ينطق إلا بالذكر ولا يسمع إلا الخير ولا يبصر إلا ما فيه خير، وكان سكوته ذكرا ونطقه ذكرا وعمله خيرا، كل ذلك من آثار ما رسخ في قلبه من تلك الأدلة. وهناك آخر ما سمع إلا القليل، ولا اهتم إلا بالقليل من السنة، ولم يتعلم إلا أطراف المعلومات، ومع ذلك امتلأ قلبه باللهو والسهو وزينة الدنيا وزخرفها والميل إليها، وامتلا قلبه بمحبة الشهوات ، فإذا رأته لا تسمعه يذكر الله إلا قليلا ولا ترى جوارحه تنطلق إلا قليلا بالأعمال الصالحة، بل وضد ذلك لا يذكر إلا ما يشتهي وما يميل إليه ، ولا ينطلق إلا إلى هوى نفسه ، وأعماله الصالحة قليلة، فهل يقال: إن أعمال هذا وأعمال هذا مستويات ؟ الذي يقول ذلك ليس له فكر. نعود إلى كلام الموفق رحمه الله، قوله: (إن الإيمان قول باللسان) يدخل في ذلك الأذكار، فهي من الإيمان، فإذا قلت مثلا : سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا إله إلا الله، وأعوذ بالله، وباسم الله، والله ربنا، فهذا كله من الإيمان وهو قول اللسان. وكذلك إذا دعوت إلى الله، أو دعوت إلى الخير، وعلمت الناس، ودعوت إلى كتاب الله والعمل به ، فكل نطق تنطق به وهو يدل على الخير فإنه من الإيمان ، يقال: هذه الكلمة إيمان، وهذه التهليلية إيمان، وهذه التسيحة إيمان، (واعتماد بالجان) أي: بالقلب، والاعتقاد: ما عقد عليه القلب وتمسك به ، فالعقد أصله انعقاد القلب على الشيء، وعدم التردد في ثبوته ، فإذا اعتقد قلبك ثبوت البعث فهذا من الإيمان، وإذا اعتقد قلبك ثبوت عذاب القبر فهذا من الإيمان، وإذا اعتقد قلبك ثبوت الوحي فهذا من الإيمان، وإذا اعتقد قلبك ثبوت الحشر والنشر والجزاء على الأعمال وتفصيل ذلك فهذا من الإيمان، وإذا اعتقد قلبك ثبوت الملائكة وكثرتهم فهذا من الإيمان، وإذا اعتقد قلبك ثبوت الرسالة وكثرة الرسل فهذا من الإيمان، إلى آخر ذلك؛ كل ما يعقد عليه القلب فإنه من الإيمان. كذلك أيضا عمل الجوارح ، فالصلاة والصدقات والصيام والطواف والحج والوقوف ورمي الجمرات والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والدعوة إلى الله تعالى ، كل هذه من الإيمان. والبخاري يبوب على ذلك في صحيحه فيقول: (باب الصلاة من الإيمان) ، (باب أداء الخمس من الإيمان)، (باب أداء الزكاة من الإيمان)، (باب الصبر من الإيمان)، وهكذا يعدد خصال الخير ويجعلها من الإيمان؛ لأنها من الأعمال بالجوارح، والأعمال بالجوارح من الإيمان. أما الأدلة على ذلك فمنها قوله تعالى: { وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ } (البينة:5) الدين هو الإيمان، فجعل هذه الخمس من الإيمان: العبادة: يدخل فيها أنواع الطاعة وأنواع القربات كلها من الإيمان. الإخلاص: إرادة وجه الله تعالى بالعمل وعدم إرادة غيره؛ هذا أيضا من الإيمان. الحنيف: هو المقبل على الله المعرض عما سواه، هذا من الإيمان. الصلاة: من الإيمان. الزكاة: من الإيمان. وكلها من الدين. كذلك الإيمان: ذكر أنه يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، وقد تقدم ذكر من ينكر زيادته، وتبين لنا خطوهم وبعدهم عن الصواب، والأدلة واضحة على ذلك، قال الله تعالى : { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } (آل عمران:173) . وفي سورة الأنفال يقول تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا } (الأنفال:2) .